

ثنائية الحياة والموت في قصيدة وصف الجبل لابن خفاجة

اعداد

الدكتور محمد درابسة
أستاذ النقد القديم المساعد
قسم اللغة العربية
جامعة اليرموك
أربد - الأردن

«ثنائية الحياة والموت في قصيدة وصف الجبل لابن خفاجة»

يتناول هذا البحث «ثنائية الحياة والموت في قصيدة وصف الجبل لابن خفاجة». إذ تمثل هذه الثنائية في شعره بعداً متميزاً بين شعراء الأندلس، فقد خرجت هذه الثنائية عن كونها ظاهرة طبيعية تتأهل عند معظم الشعراء لتشكّل فلسفة تشاؤمية في شعر ابن خفاجة. كما يتناول البحث البعد الأسلوبي المتمثل في شعره. وقد انقسم البحث إلى تمهيد يتحدث عن ابن خفاجة وعصره وأثر ذلك في شعره، ثم تحليل لثنائية الحياة والموت في شعره.

“Duality of life and death in Ibn Khafāja’s Poem,
wasf al – jabal “Description of the Mount”.

This paper is addressed to deal with the duality of life and death in Ibn Khafāja’s Poem wasf al – jabal “Description of the Mount”. Ibn Khafaja is believed to assume in his poems, various attitudes toward both problems of death, or cessation of begin, and life, or existence, to the extent that he appears distinguished amongst other Andalusian poets. The phenomenon of duality does not remain ordinary and natural, in the eyes of Ibn Khafaja, as it does in respect to other poets.

Duality can be seen reflected in his poetry as pessimistic philosophy. This paper deals, as well, the stylistic technical aspect manifested by this poetry.

« ثنائية الحياة والموت في قصيدة وصف الجبل لابن خفاجة »

تمهيد

لقد عاش ابن خفاجة (٤٥٠ - ٥٣٣ هـ) في فترة صعبة من التاريخ العربي في الأندلس. فقد بدأ الضعف يدب في جسم الدولة الأموية. وذلك بعد أن استبد العامريون بأمر الخلافة، حيث أخذ رؤساء الطوائف يستقلون باماراتهم التي يحكمونها، فغرقوا بعد ذلك بملوك الطوائف، الذين امتد حكمهم من سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م - ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م^(١).

وفي اطار هذه المتغيرات التي أصابت الدولة العربية في الأندلس وتمزيقها الى دويلات صغيرة، فقد استيقظت اسبانيا النصرانية لتواجه تلك الدويلات المتحاربة والمفككة الأوصال، واللاهية في الترف، إضافة الى وقوف البربر في وجه هذه الدويلات أيضا، وكذلك تعاون الاسبان النصارى مع النصارى في غرب أوروبا، ويفعل هذه الأسباب مجتمعة فقد وهن ملوك الطوائف، واستطاع الإسبان في آخر الأمر التغلب على هؤلاء الملوك الضعاف وانهاء حكمهم، وكان ذلك بين سنة ٩٢ هـ وحتى سنة ٨٩٨ هـ أي ٧١١ م الى ١٤٩٢ م^(٢).

والى جانب التعصب والاستبداد واللهو والحرية المفرطة التي أصابت الحياة في الأندلس^(٣). فقد نشأت تيارات تدعو الى الزهد والابتعاد عن ترف الحياة وملذاتها، ولعل ذلك يعود الى فرضى الحياة السياسية، والاضطراب الذي شمل مناحي الحياة المختلفة مما شجع كل فرد على السعي الى تخليص نفسه من غوائل الحياة والنجاة من براثن الاوضاع الاجتماعية السيئة، مما جعل الزهد في الحياة مذهباً ادبياً أخلاقياً^(٤). كما ساعدت الحرية التي سادت آنذاك على ظهور اتجاه فلسفي اثر بشكل مباشر على الحركة الشعرية في الأندلس، فضلا عن شعر ابي العلاء المعري واثره في شعراء الأندلس^(٥).

وفي خضم هذه التقلبات السياسية والفكرية في الأندلس عاش ابن خفاجة حياته، حيث عكف في صباه على المجون واللهو والتمتع بالطبيعة الأندلسية الغناء التي تركت اثرا بارزا على شعره، كما اقلع في شيخوخته عن حياة اللهو والمجون الى النسك والخوف من الموت بعد رحيل اصدقائه وبقائه وحيداً، حيث لم يتزوج خلال حياته، مما دفعه الى التعلق برجال الدولة^(٦).

ولذا فان شخصية ابن خفاجة قد تأثرت أيضا نتيجة للأحداث الجانحة التي منيت بها الأندلس، مما جعله ينأى بنفسه عن هذه الحياة المتوترة، وان يميل الى العزلة، وبخاصة بعد عودته الى مسقط رأسه شقر التي احتلها الاسبان اثناء الهجمات والمعارك المتواصلة بين ملوك الطوائف وجموع الاسبان بزعامة القمبيطور. ولذلك اتجه ابن خفاجة الى الزهد

والتوبة ، وصار شديد الاحساس بدنو الأجل ، وبخاصة بعد أن تقدمت به السن ، وعاصر تلك الأحداث التي عصفت بالحياة الاندلسية ، ورحيل أصدقائه ، وبقائه وحيدا كئيبا دون زوجة او صديق (٧) .

وفي ضوء هذا التمهيد عن الأوضاع السياسية والفكرية في الاندلس وأثرها على شخصية ابن خفاجة ونظرته الى الحياة وعلى شعره ايضا ، فسوف يتناول هذا البحث قصيدة وصف الجبل التي تمثل نظرة ابن خفاجة الى الحياة وتقلبها ، كما تعكس نفسية ابن خفاجة وشخصيته . وهذه القصيدة النموذج تمثل ظاهرة الموت والحياة عنده بشكل واضح ، علما أن ثمة قصائد اخرى تتناول هذه الظاهرة كقصيدة وصف القمر مثلا .

(١)

تعالج هذه الدراسة موقف ابن خفاجة من ثنائية الحياة والموت التي تتجلى في ثنايا شعره وبخاصة قصيدة وصف الجبل التي تبرز فيها ثنائية الحياة والموت بشكل واضح ، كما تشكل هذه الثنائية جوهر النص وأساسه . ويحاول الشاعر من خلال هذا النص معاينة الوجود وسبر كنه هذه الحياة للوصول الى فلسفة خاصة به تتمثل عبر التجارب المختلفة والتي مر بها ، كما تعاین هذه القصيدة حركة الزمن الدائبة ازاء الحياة القصيرة الفانية ، فالنص يشكل مواجهة حقيقية للموت والبقاء .

وقراءة النص هنا تتناول كل جزئياته التي تتضافر معا عبر السياقات التي تنصهر في صياغة واحدة تجسد تجربة الشاعر وتوتره ازاء ظاهرة الموت والحياة . فالدراسة هذه تتناول اللغة ومستوياتها المختلفة ، اضافة الى الابقاع والصورة بشكل متكامل ، بحيث يعالج النص هذه العناصر الأساسية فيه معاً دون تجزئ لها يفقدها الحيوية التي تتوفر لها من خلال تناولها مجتمعة مما يمنح النص الحيوية والقدرة المتجددة على ابراز هذه الاشكالية الانسانية عبر الوجود في معاينة مسألة الموت والحياة من خلال هذا النص الشعري (٨) .

فالدراسة الأدبية ينبغي أن تعاین النص من داخله ، وأن تتعد عن المظاهر الشكلية وتفسير الكلمات لغويا ، لتسبر جوهر النص الذي يجسد نفسية الشاعر الحقيقية ورؤيته للحياة (٩) . وبخاصة قصيدة وصف الجبل التي جاءت في ظروف صعبة مرت على الشاعر ، فجعلته يتأمل هذه الحياة ويحاول سبر كنه الموت وحقيقته من خلال رحيل اصدقائه وأحبابه ، وبقائه وحيداً ، مما جعل لهذه العزلة أثراً في تصورهِ للحياة .

كما تتناول الدراسة المظاهر الاسلوبية المتعلقة باللغة ومستوياتها ، واشكال التكرار ، والاشارات البلاغية التي تعین على الوقوف على طبيعة تجربة الشاعر الفنية التي استطاع من

خلالها تجسيد فكرته عن الحياة والموت مما شكل منها فلسفة تشاؤمية خاصة وسمت الشاعر
بسماتها.

ويقول ابن خفاجة في قصيدة وصف الجبل (١٠) :

- ١- بِعَيْشِكَ هَل تَدْرِي أَهْوَجُ الْجَنَائِبِ
 - ٢- فَمَا لَحْتُ فِي أَوَّلِ الْمَشَارِقِ كَوَكْبَا
 - ٣- وَحِيداً تَهَادَانِي الْفِيَّافِي فَأَجْتَلِي
 - ٤- وَلَا جَارَ إِلَّا مِنْ حُسَامٍ مُصَمَّمِ
 - ٥- وَلَا أَنْسَ إِلَّا أَنْ أَضَاجِكَ سَاعَةً
 - ٦- بَلِيلٍ إِذَا مَا قَلْتُ قَدْ بَادَ فَأَنْقَضِي
 - ٧- سَعَيْتُ الدِّيَابِجِي فِيهِ سُودَ ذَوَائِبِ
 - ٨- فَمَزَّقْتُ جَيْبَ اللَّيْلِ عَنْ شَخْصِ أَطْلَسِي
 - ٩- رَأَيْتُ بِهِ قِطْعاً مِنَ الْفَجْرِ أَغْبَشَا
 - ١٠- وَأَرَعَنْ طَمَّاحَ السُّؤَابَةِ بِأَذْخِ
 - ١١- يَسُدُّ مَهَبَ الرِّيحِ عَنْ كُلِّ وَجْهَةٍ
 - ١٢- وَتُسَوِّرُ عَلَى ظَهْرِ الْفِلاَةِ كَاتَهُ
 - ١٣- بِلَوْثٍ عَلَيْهِ الْغَيْمُ سُودَ عَنَانِ
 - ١٤- أَصْحَتْ إِلَيْهِ وَهُوَ أَنْحَرَسُ صَامِتٌ
 - ١٥- وَقَالَ أَلَا كَمْ كُنْتُ مَلْجَأَ فَاتِكِ
 - ١٦- وَكَمْ مَرَّ لِي مِنْ مُذَلِّجٍ وَمُؤَوِّبِ
 - ١٧- وَلَا ظَمَّ مِنْ نَكَبِ الرِّيحِ مِعَاطِفِي
 - ١٨- فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ طَوَّئْتُهُمْ يَدُ الرُّدَى
 - ١٩- فَمَا خَفَقُ أَبْكَيَ غَيْرَ رَجْفَةٍ أَضْلَعُ
 - ٢٠- وَمَا غِيَصَ السُّلْوَانَ دَمْعِي وَإِنَّمَا
 - ٢١- فَحَتَّى مَنَى أَيْقَى وَيَطْعَنُ صَاحِبُ
 - ٢٢- وَحَتَّى مَنَى أَرْضِي الْكَوَاكِبِ سَاهِرَا
 - ٢٣- فَرُخَّيَاكَ بِأَمْلَوَايَ دَعْوَةَ صَارِعِ
- تَحُبُّ بِرِخْلِي أَمْ طُهُورُ السَّنَجَائِبِ (١١)
فَمَا شَرَّقْتُ حَتَّى جُبْتُ أُخْرَى الْمَغَارِبِ
وَجُودَ الْمَنَابِي فِي قِنَاعِ السَّفِيَاهِبِ (١٢)
وَلَا دَارَ إِلَّا فِي قُسُودِ السَّرْكَائِبِ (١٣)
تُسَوِّرُ الْأَمَانِي فِي وَجُودِ الْمَطَالِبِ
تَكْشُفُ عَنْ وَعْدٍ مِنَ الظَّنِّ كَأَذِبِ
لَأَعْتَرِقَ الْأَمَالَ بِيضَ تَرَائِبِ (١٤)
تَطَّلَعَ وَضَاحِ الْمَضَاحِكِ قَاطِبِ (١٥)
تَأْمَلُ عَنْ نَجْمِ تَسْوِيقِ نَاقِبِ
يُطَاوِلُ أَعْنَانَ السَّمَاءِ بِنِغَارِبِ (١٦)
وَيَزْحَمُ لَيْلاً تُسَبِّهُهُ بِالسَّنَاكِبِ
طَوَالَ اللَّيَالِي مُطَّرِقُ فِي التَّوَارِبِ
لَهَا مِنْ وَمِيضِ الْبَرْقِ حُمُرُ ذَوَائِبِ
فَحَدَّثَنِي لَيْلِ الشَّرَى بِالْعَجَائِبِ
وَمِوْطِنَ أَوَاهِ تَبْتَلِ نَائِبِ
وَقَالَ بِنِظْلِي مِنْ مِطْطِي وَرَاكِبِ (١٧)
وَرَاخِمَ مِنْ خُضْرِ الْبِحَارِ جَوَانِبِي (١٨)
وِطَارَتْ بِهِم رِيحُ النُّورِ وَالتَّنَوَّابِ (١٩)
وَلَا تَسُوحُ وَرُقِي غَيْرَ صَرَخَةٍ نَادِبِ (٢٠)
تَرَفَّتْ دُمُوعِي فِي فِرَاقِ الْأَصْحَابِ (٢١)
أَوْدَعُ مِنْهُ رَاحِلَا غَيْرَ آبِ (٢٢)
فَمَنْ طَالَعَ أُخْرَى اللَّيَالِي وَغَارِبِ
يَسُدُّ أَلَى نُفَمَاكَ رَاحَةَ رَاغِبِ

- ٢٤- فَأَسْمَعَنِي مِنْ وَعْظِهِ كُلِّ عِبْرَةٍ يُسْرِجُهَا عَنْهُ لِسَانُ التَّجَارِبِ
 ٢٥- فَبَسَلْتُ بِمَا أَبْكِي وَوَسَّرِي بِمَا شَجَا وَكَانَ عَلَى لَيْلِ الشَّرَى تَخَيَّرَ صَاحِبِي (٢١)
 ٢٦- وَقَلْتُ وَقَدْ نَكَبْتُ عَنْهُ لَطِيئَةً سَلَامٌ فَإِنَّا مِنْ مُقْسِمٍ وَذَالِغِبِ (٢٢)

تشكل قصيدة وصف الجبل من ثلاث لوحات شعرية هي : البحث عن الحقيقة او ما يمكن تسميته بالكشف عن كنه الحياة او سر الوجود . وهذه اللوحة تمثل صورة الشاعر او الوجه الخارجي للشاعر حيث القلق والمعاناة والتهيب واستشراف كنه هذه الحياة . وأما اللوحة الثانية فهي لوحة وصف الجبل وتتمثل في البيت العاشر حتى البيت الثالث والعشرين ، ويجسد هذه اللوحة الصورة الداخلية للشاعر ، وذلك من خلال الظلال التي تركها صورة الجبل في النفس ، فالجبل يمثل اسما للامع الشاعر ومعاناته . وتمثل اللوحة الثالثة مرحلة ادراك كنه هذه الحياة وسبر غورها . فالشاعر في هذه اللوحة يقف على سر الوجود المحير بالنسبة للانسان ، حيث يدرك حقيقة هذه الحركة والتغير والثبات في هذه الحياة ، وذلك من خلال صورة الانسان ، وصورة الجبل والطبيعة .

لقد كشفت اللوحة الأولى المشكلة التي تلح على ابن خفاجة وعلى الانسان الاندلسي بشكل عام وهي مشكلة الوضع السياسي عامة ، كما كشفت عن الوضع الاندلسي القلق والمتوتر والمتوجس ازاء الواقع الذي يعيشه الفرد الاندلسي آنذاك وبخاصة ما اصاب الحياة العامة للاندلس من تغير وتشرد ومواجهة حقيقية للموت ، انها تمثل مشكلة التصير الانساني (٢٥) . إن هذه المشكلة الانسانية قد دفعت ابن خفاجة الى القلق ازاء الواقع الذي يعيشه ، مما حدا به الى التفكير بوجوده ومصيره (٢٦) ، فأصبح ازاء حقيقة تلح عليه هي حقيقة الحياة التي تمر بسرعة فتأخذ معها مرحلة الشباب ، كما تفرق الأصحاب والأحباب ، وتترك الانسان ينتظر الحقيقة المرة المتمثلة بالموت والفناء والانهاء . يقول ابن خفاجة : « فأين ما كان من تلك الأيام المتخيلة من الأحلام ؟ وأين من قد عرفنا والفنا من الأخوان ؟ بانوا ، وكأنهم ما كانوا ، وفقدوا ، وكأنهم ما وجدوا ... نعم آه ا على شباب قد انقلب ، وذهاب قد اقترب ، فلا تناجني الا بعمل يتعقب ، وأجل يترب » (٢٧) .
 وقد بدأ الشاعر لوحته الأولى بمخاطبة الجبل مستخدما أسلوب القسم بقوله :

بعيشك هل تدري أهوج الجنائب تحب برحلي أم ظهور النجائب
 فالعيش هو الاشكالية التي يعاني منها الشاعر ، فهي تمثل اشكالية الحياة عنده ، فالشاعر تواجهه منذ البيت الأول حالة التغير والحركة الخفية اللا ارادية المتمثلة في حركة الرياح او حركة الراحلة التي يرتحل عليها . فقد تساءل الشاعر بشكل يجسد حالة من

الذهول والاندحاش ازاء هذه الحركة التي يقوم بها دونما حس بطبيعتها . ولذلك يتساءل الشاعر مستخدماً اداة الاستفهام الهمزة فيقول : أهوج الجنايب أم النجائب هي التي تدفعه وتسبب له حالة عدم الاستقرار والثبات . ولعل هذه الحركة هي نتيجة لعدم الاستقرار النفسي عند الشاعر . فهو يواجه حركة دائبة للطبيعة وكذلك للوضع العام في الاندلس حيث تقوم ممالك وتندثر اخرى بحركة عجيبة يتأثر بها فيرتحل عن بلده مجبراً ويبقى يدور في دائرة التنقل وعدم الثبات ، مما حدا به الى التفكير بالطبيعة التي تتمثل بالرياح التي تشكل رمزاً للتغيير والشؤم في آن معا .

وقد تابع في لوحته رسم حالة الذهول والقلق في رحلته لكشف كنه هذه الحياة ، حيث يعبر في البيت الثاني والذي يليه عن صدمته ازاء بحثه عبر الجهول من معرفة حركة سيره وتنقله وحيداً دون خل او رفيق ، فالشاعر يعبر عن وحدته بعد رحيل اصحابه وبقائه دون زواج في مواجهته لحقيقة الوجود . حيث بدأ الانفعال والتوتر واضحاً عند الشاعر من خلال تتابع الأبيات التالية :

وحيداً تهاداني الفيافي فأجتلي وجوه المنايا في قناع الغياهب
ولا جار إلا من حسام مصمم ولا دار إلا في قنود الركائب
ولا انس إلا أن أضاحك ساعة ثغور الأماني في وجوه المطالب

فالوحدة في اطار الصحراء الواسعة التي تخفي في ظلمتها الموت والفناء ، تلح على الشاعر مقاومة الخوف بالضحك ساعة او بتذكر اهمية الجار والصديق ، بعد أن اصبح بيت الشاعر راحلته التي يتنقل عليها ، والتي تعكس حالة التغيير وعدم الاستقرار ، فالرحلة عبر الليل والظلمة تمتد الى ما لانهاية حيث يكشف الليل عن ليل جديد تتبدد فيه الآمال وتتلاشى فيه الأحلام والأمانى :

بليل اذا ماقلت قد باد فانقضى تكشف عن وعد من الظن كاذب
وقد بلغ التوتر والعنف اوجه عند الشاعر في قوله :

فَمَزَّتْ جيب الليل عن شخص أطلس تطلع وضاح المضاحك قاطب
ان استخدام الشاعر لصيغة المبالغة بقوله « فَمَزَّتْ » تجسد حالة العنف التي لجأ اليها الشاعر للكشف عن سر الوجود عبر رحلة الحياة . اذ واجه الشاعر في رحلته مشكلة التغيير والزوال للمالك ودول ، فأصابه ما أصاب هذه الممالك من التغيير والتشرد ومواجهة الموت ، مما جعله يعود بذاكرته الى الماضي حيث السيف والقوة والراحلة التي كانت سيلاً الى قوة العرب عبر حضارتهم الممتدة الى زمن بعيد ، فالشاعر يواجه تحدياً من الواقع الذي

يعيشه ، ومن الموروث الذي وصل اليه عن اجداده العرب ، فقد كان الماضي يعني القوة والشموخ بينما يعني حاضر الشاعر الضعف والقلق والخوف والموت بحقيقته المرة ، ولذلك فقد أخذ الشاعر يحاول الكشف عن سر الحياة وحقيقة الموت من خلال الطبيعة التي تمثل وجودا مستمرا تتبدل من خلاله المالك والدول والأشخاص ، بينما تبقى هي شاهدا على تحولات هذا الوجود وتغيراته .

وتظهر الصورة الداخلية للشاعر من خلال اضفاء المشاعر الانسانية على الجبل الذي يمثل شخصا آخر ازاء شخصية الشاعر^(٢٨) ، بل انه يمثل حقيقة الشاعر نفسه ، إذ ان ابن خفاجة لم يقصد تصوير الملامح الطبيعية البارزة في الجبل بقدر ما كان يريد تصوير ما تثيره هذه الملامح في نفسه ، إذ ان الشاعر قد اسقط جميع احساسه ومشاعره على الجبل ، فبدا هذا الجبل الشامخ الوقور انسانا حيا يزيد مشاعر ابن خفاجة المرهفة انسانية ، ويبعث في نفسه الأمل والأناة مستمداً من اناة الجبل وطول تأمله العبرة والقدرة على مواجهة المصير .

فقد رسم الشاعر ملامح هذا الجبل بدقة متناهية وكأنه يرسم بالفعل ملامحه الخاصة بعد أن أخذ يستشعر بدنو أجله وباستقاله للحياة ، فقد بدت صورة الجبل بشكل مجسم بحيث ظهرت ملامح الكبر والشموخ والارتفاع ، حيث يقف في وجه الرياح رمز التغيير والشؤم ، تلك الرياح التي كانت تحرك الشاعر دونما ارادة منه ، يقول :

وأرعن طمّاح الدوّابة باذخ
يطاول أعنان السماء بغراب
يسد مهب الريح عن كل وجهة
ويزحم ليلا شبيه بالمناكب
إن صورة الجبل هي صورة الناسك المعمر الذي يطرق متأملاً بحركة الزمن وتقلب الأمور ورحيل اناس ومجيئ آخرين في حركة دائبة غير متوقفة . يقول :

وقور على ظهر الفلاة كأنه
طوال الليالي مطرق في العواقب
فما كان إلا أن طوتهم يد الردى
وطارت بهم ريح النوى والنوائب
وقد استطاع الشاعر من خلال البحر الطويل أن يوفر ايقاعاً قوياً ينفث من خلاله أحزانه وآلامه ، ولهذا فان القارئ يلمس ويحس من خلال حرف الباء الذي انتهت اليه القافية قوة وعنفاً يجسد حالة الغضب والعنف التي تتصر قلب الشاعر ازاء تلك الحالة المبهمة التي تصيبه من خلال مراقبته ومعايشته لتقلبات الزمن . يقول :

فما خفق أيكي غير رجفة أضلع
ولا نوح وربي غير صرخة نادب
ولهذا نلمس أن الشاعر قد قدم من خلال خطابه الشعري هنا مقاطع موسيقية مؤثرة كما هو الحال في البيت السابق حيث نجد قوله فما خفق أيكي ، ثم رجفة أضلع ، ونوح وربي ، ثم صرخة نادب ، إذ أن كل مقطع يعبر عن مشاعر حزينة تخرج من قلب الشاعر ،

فصورة حركة الاشجار في الغابة التي تشبه باغصانها اضلع الشاعر المرتجفة الفزعة من حال الزمن الذي يعايشه ، انقلبت هنا من صورة جمالية لاغصان اشجار الغابة الى صورة حزينة مؤلمة ، وكذلك مقطع نوح الورق التي ترمز عادة للسلام والمحبة والوداعة لتصبح حزينة تنوح وتندب شبيه بصرخة الملهوف والفزع الذي يواجه صدمة الحياة ، ويتربص الانتهاء والفناء والموت .

وقد بلغت حدة الماطفة والانفعال والتوتر اوجها عند الشاعر والجميل معا من خلال استمالتها للذياة بعد رحيل الاصدقاء والأحبة . إن هذا الفراغ العاطفي قد جعل الشاعر يرى حياته في هذه المرحلة المتقدمة من العمر عبثاً ، إذ أن حدة الصراع بين الحياة الثقيلة التي يعيشها وبين الموت المرتقب قد برزت من خلال الأبيات المتابعة التالية :

وما غيضر السلوان دمعي وإنما نزفت دموعي في فراق الأصحاب
فحتي متى أبقي ويظعن صاحب أودع منه راحلا غير آيب
فحتي متى أرعى الكواكب ساهرا فن طالع أخرى السبالي وغارب

إن هذه الأبيات تركز على المفضلة الجوهرية في حياة الشاعر من خلال تنازعه بين الحياة المملة الثقيلة وبين الموت المرعب الخيف . فقد كرر الشاعر هنا على لسان الجبل قوله فحتي متى أبقي ثم وحتي متى أرعى الكواكب ، وهنا تظهر اشكالية البقاء ازاء حركة الزمن الدائبة التي تركت الشاعر في فراغ عاطفي وحيداً يواجه العزلة بعد رحيل أصدقائه . فالشاعر يراقب حركة الزمن وتغير الليل والنهار وكأنه قد اصبح معلقا في هذه الحركة الدائبة دون ارادة منه ، ولهذا نراه يتوجه بالتضرع الى الله طلبا للراحة والطمأنينة^(٢٩) ، وتمللا من الحياة ، وطول العمر ، وقسوة العزلة والوحدة ، فيقول :

فرحماك يامولاي دعوة ضارع يمد الى نعامك راحة راغب
فأسمعي من وعظه كل عبرة يترجمها عنه لسان التجارب

إن النزعة الفلسفية التشاؤمية التي برزت بوضوح في هذا الخطاب الشعري تجسد تفسيراً لثنائية الحياة والموت او الحضور والغياب والتي توصل اليها الشاعر من خلال اسقاطه لمشاعره الانسانية ومرارة تجربته على معلم من معالم الطبيعة التي تشهد التغيرات البيئية ، وتخلد رغم تحولات الزمن وتقلباته ، وهو أن الحياة هي مرحلة تنتهي الى رحلة قاسية تتمثل بالموت والقناء والغياب ، ولهذا قال الشاعر :

وقلت وقد نكبت عنه لطية سلام فإننا من مقيم وذاهب
إن هذه النتيجة التي توصل اليها الشاعر في نهاية الامر تشكل حقيقة الاستسلام لسنة الكون وطبيعة الحياة التي تتجسد فيها جدلية الموت والحياة أو الاقامة والرحيل . ولعل هذه النتيجة تمثل علاجاً نفسياً للشاعر بعد أن شهد ظروفاً من التقلب والتغير والارتفاع

والانحطاط على صعيد الوضع العام في الاندلس وما أصاب الفرد الاندلسي أيضا من تشرد وعزلة ووحدة وعذاب ضمير ازاء ما آل اليه الوجود العربي في الاندلس ، ولهذا فقد لجأ الشاعر الى الطبيعة الصامتة التي أحس من خلالها بالتغير وبالصرع بينه وبين الزمن من خلال ما يحدث عبره من تغير وتبدل في الطبيعة والانسان . ولهذا فإنه يمكن للمرء ان يلمس بوضوح نظرة الشاعر الى الحياة من خلال النص حيث يبرز صراعه مع الحياة في مواجهة الموت في أسلوب قصصي^(٣٠) . حيث تتمثل فيه مناجاة النفس ، بحيث يعكس هذا الجو بعداً رومانسياً واضحاً^(٣١) .

وأخيراً ، يمكن القول بأن هذا النص قد ساق مشكلة الموت والحياة التي أضنى الشاعر عليها نزعة فلسفية تساؤلية بأسلوب قصصي ابتعد فيه الشاعر عن الأسلوب التسجيلي ، حيث وظف الشاعر أسلوب التكرار من خلال تكراره بعض المقاطع والحروف ، فضلاً عن الإيقاع والنغم الموسيقي الذي جاء به البحر الطويل بشكل خدم النص الشعري ومنحه حيوية وقوة تتلاءم مع قوة الكلمة والنبر الذي نقل مشاعر الشاعر ومواجهته لهذه الاشكالية الانسانية المتمثلة بثنائية الموت والحياة .

الهوامش

- ١- الزكائي ، جودت : في الأدب الأندلسي ، دار المعارف بمصر ، ط٤ ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢٣ .
- ٢- انظر ، غومس ، غارسيا : الشعر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٣ ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٤٤ - ٥٤ .
- ٣- الدقاق ، عمر : ملامح الشعر الأندلسي ، دار الشروق ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ١٤ - .
- ٤- جودت الزكائي : في الأدب الأندلسي : ص ٤٧ - ٤٨ .
- ٤- عباس ، احسان : تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ، دار الثقافة ، ط ٥ ، بيروت ١٩٧٨ ، ص ١٣ .
- ٥- المرجع نفسه ، ص ١٢٦ .
- ٦- المرجع نفسه ، ٢٠٦ .
- ٧- انظر ، جودت الزكائي : في الأدب الأندلسي ، ص ١٠٦ .
- ٧- غارسيا غومس : الشعر الأندلسي ، ص ٥٨ - ٥٩ .
- ٧- عمر الدقاق : ملامح الشعر الأندلسي ، ص ١٩٠ - ١٩٢ .
- ٧- انظر : جودت الزكائي : في الأدب الأندلسي ، ص ١٠٦ .
- ٨- انظر نورالدين ، صدوق : حدود النص الأدبي ، دراسة في التنظير والابداع ، دار الثقافة ، ط ١ ، الدار البيضاء ١٩٨٤ ، ص ٨ .
- ٩- انظر : فضل ، صلاح : بلاغة الخطاب وعلم النص ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وسلسلة عالم المعرفة رقم ١٦٤ ، الكويت ١٩٩٢ ، ص ٢٢٩ .
- ١٠- يحيى العيد : في معرفة النص ، دار الآفاق الجديدة ، ط ٣ ، بيروت ١٩٨٥ .
- ١١- صدوق نورالدين : حدود النص الأدبي ، ص ٢٨ .

- ١٢- ابن خفاجة ، ابو اسحاق ابراهيم بن خفاجة : الديوان ، تحقيق سيد غازي ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، ط٢ ، ١٩٧٩ ، ص ٢١٥ - ٢١٧ .
- ١٣- هوج الجنائب : رياح الجنوب الموجهاء . الجنائب : مفردتها نجبية وهي الناقة الأصلية .
- ١٤- التيامب : الظلمات .
- ١٥- القنود : مفردتها قند ، وهي أحشاش الرجل ، الركائب : النوق .
- ١٦- الدياجسي : الظلمات : التراب : عظام الصدر .
- ١٧- الجيب : مانتت فتحة العنق من الثوب ، الأطلسي : الأغبر ويريد به الأفق الذي اتضحت فيه ملامح الضوء .
- ١٨- الأرعن : نعت للجبل المخدوف وهو الشديد التنوء . الباذخ : الشامق ، الغارب الظهر .
- ١٩- أدلج : سار في الليل ، وأدب وآب : رجع . نال : القبولة وهي الاستراحة وقت الظهيرة . المطي : الحيوان من خيل وإبل .
- ٢٠- ربح نكباء : شديدة عاصفة . الماطف : الجوارب . الفوارب : مفردها غارب ، وهو أعلى الشيء .
- ٢١- النوى : البعد ، النوايب : المصائب .
- ٢٢- الأيك : الشجر المورق المتلف . الورق : الحمام .
- ٢٣- غيض الماء أو الدمع : ذهب به وحبه . سلاه : نسيه .
- ٢٤- ظمن : سار وأرحل ، آيب : راجع ، عائد .
- ٢٥- سرى : بدد الخزن وأهد الغم وألهم .
- ٢٦- الطية : الجهة أو الناحية البعيدة ، وكذلك التبة والقصد . نكب وتنكب : عدل وتنحى وأعرض .
- ٢٧- احسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ، ص ١٩٣ .
- ٢٨- انظر ، عبد الخالق ، أحمد محمد : قتل المرت ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة رقم ١١١) الكويت ، ١٩٨٧ ، ص ٣٩ .
- ٢٩- ابن خفاجة : الديوان ، ص ٦٤ .
- ٣٠- احسان عباس : تاريخ الشعر الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ، ص ٢٠٩ - ٢٢٠ .
- ٣١- جودت الزكابي : في الأدب الأندلسي ، ص ١٠٨ .
- ٣٢- السعيد ، محمد مجيد : الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ١٩٨٠ ، ص ١٣٨ .
- ٣٣- عمر الدقاق : ملامح الشعر الأندلسي ، ص ٢٥٢ .

المصادر والمراجع

- ١- الزكابي : جودت : في الأدب الأندلسي ، دار المعارف بمصر ، ط ٤ ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
- ٢- ابن خفاجة : ابو اسحاق ابراهيم بن خفاجة : الديوان ، تحقيق سيد غازي ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، ط ٢ ، ١٩٧٩ .
- ٣- الدقاق ، عمر : ملامح الشعر الأندلسي ، دار الشروق ، بيروت ١٩٧٥ .
- ٤- السعيد ، محمد مجيد : الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ١٩٨٠ .
- ٥- صدوق ، نورالدين : حدود النص الأدبي ، دراسة في التنظير والإبداع ، دار الثقافة ، ط ١ ، الدار البيضاء ١٩٨٤ .
- ٦- عباس ، احسان : تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ، دار الثقافة ، ط ٥ ، بيروت ١٩٧٨ .
- ٧- عبد الخالق ، احمد محمد : قتل المرت ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة رقم ١١١) الكويت ١٩٨٧ .
- ٨- غومس ، غارسيا : الشعر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٣ ، القاهرة ، ١٩٦٩ .
- ٩- فضل ، صلاح : بلاغة الخطاب وعلم النص ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة رقم ١٦٤) الكويت ١٩٩٢ .
- ١٠- بنى العيد : في معرفة النص ، دار الآفاق الجديدة ، ط ٣ ، بيروت ١٩٨٥ .